

السمائر:

دراسة لمنشأة تجارية يمنية في العصر الوسيط

محمود ابراهيم حسين

أولاً: الحالة التجارية

حرص اليمنيون منذ القديم على الاهتمام بالتجارة وتذليل الصعاب التي تعترضها، فنشروا الأمن والاستقرار وأنشأوا المباني التجارية في داخل المدن بالإضافة إلى ما أنشأوه من طُرُقٍ عليها. ولقد حوت اليمن مراكز تجارية متعددة كان أبرزها مدينتي صنعاء وعدن، ولذا وجه حكام اليمن على مر العصور اهتمامهم إلى تنظيم الأسواق داخل هذه المدن، وبناء المخازن التجارية مثل القيساريات⁽¹⁾ والخانات⁽²⁾

(1) يطلق اسم قيسارية على أحد أنماط المباني التجارية «قيصرية» ويرجح أن الكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية بمعنى امبراطور (قيصري - سوق القيصر أي السوق الامبراطوري) (وهو يعادل الأجرأ عند الأغريق والفوروم عند الرومان) وفي مناطق شمال إفريقية نجد كلمة قيسارية (تدل على السوق المركزي، وكانت له أبواب تغلق). وفي الشام تطلق على تجمع المحلات على الرغم من اختلاف البضائع المعروضة بها، والقيصرية في مصر عبارة عن مبنى به عدة ممرات مسقوفة، توجد حول صحن كبير ويكون له عدة مداخل متقابلة، وقد ذكر المقرئزي أن القاهرة في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، كان بها سبع وثلاثون قيسارية. قارن بالمقرئزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج 2، ص 86 - 94.

(2) الخان هو نوع من المباني التي توجد على الطرق التجارية وقد وجد الخان لإيجاد مكان أمين لإقامة المسافرين والتجار في الأماكن التي تتعرض لهجمات اللصوص وقد عرفت معظم الحضارات القديمة هذا النوع من المباني، وقد ظهرت كلمة خان في النصوص العربية =

والسماسر⁽¹⁾؛ وذلك لتأمين إقامة التجار وما يحملونه من تجارة. وقد روى ابن المجاور في تاريخه «أن الملك المعز اسماعيل بن طغتكين بنى مجموعة من الدكاكين للتجار لها باب واحد يحكم إغلاقه ليلاً، وشيد للعطارين قيسارية جديدة»⁽²⁾.

ويبدو أن شهرة بلاد اليمن بالأسواق التجارية جعلتها مكاناً يأتي إليه التجار من أنحاء البلاد المجاورة، ومن تلك الأسواق أسواق الجريب⁽³⁾. وهو سوق لأهل تهامة ومكة وتعز، وبلاد همدان وسوق القويدرة في شمال شرق زيد⁽⁴⁾. وكانت مدينة عدن مركزاً تجارياً عظيماً بين بلاد العرب وأفريقية والهند والصين ومصر، حتى أن المؤرخ المقدسي يطلق عليها اسم «دهليز الصين» وقال عنها إن من دخلها بألف درهم خرج منها بألف دينار⁽⁵⁾. وكانت لبلاد اليمن طرق تجارية دولية بعضها بري والبعض الآخر بحري ومن أهم هذه الطرق طريق عدن - مكة، ويتفرع منه طريق يؤدي إلى الجبال، وطريق يسلك تهامة. وكانت هناك طرق تجارية تربط اليمن بالكوفة والبصرة. وهناك طريق بين اليمن وحضرموت. وكذلك طريق بين بغداد وحضرموت، وأما بالنسبة للطرق البحرية فكانت معظمها عن طريق

= وذلك في نص إنشاء خان العقبة عام 610هـ - 1213م. أما في داخل المدن فكان عبارة عن دار أو مكان لإقامة المسافرين وقد أطلق على الخان اسم صاحبه مثل خان الخليلي في القاهرة أو نوع التجارة المخصصة له مثل خان الصابون وخان الزيت وخان الحريري في الكثير من المدن. أنظر صالح لمعي، التراث المعماري الإسلامي في مصر، بيروت، 1984، ص ص 57-58.

- (1) السمسرة بناء معماري تتعلق بالتجار والتجارة والجمع سماسر، وهو يشبه من حيث الوظيفة الوكالة في العمارة الإسلامية في مصر. والوكالة نمط معماري أعد سكناً للتجار الشرقيين وحفظ بضائعهم. وتتكون الوكالة من ثلاثة إلى أربعة طوابق ويكون الانتماء فيها إلى الداخل حيث تفتح جميع الغرف على الصحن. صالح لمعي، المرجع نفسه، ص 59.
- (2) ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، ص 130.
- (3) الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، القاهرة، 1952، ص 248.
- (4) ابن المجاور، المصدر نفسه، ص 77.
- (5) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 34.

البحر الأحمر إلى ميناء «عذاب» على الساحل المصري للبحر الأحمر، وقد وصف ابن جبير هذا الميناء بأنه أحفل مراسي الدنيا لأن مراكب الهند واليمن ترسو فيه وتقلع منه⁽¹⁾.

ويبدو أن شهرة اليمن التجارية قديمة قدم الحضارة اليمنية نفسها، تشير إلى هذا، مجموعة المحطات التجارية الهامة عبر العصور المختلفة فاليمن كانت معبراً لطريق اللبان وخاصةً في مناطقه الشرقية وكان هذا الطريق يمتد من ظفار عاصمة حمير إلى الطائف أو درب أصحاب الفيل. ومن المعروف أن هذا الطريق كان يبدأ من عدن عبر صنعاء إلى مكة وهو نفسه طريق القوافل التي كانت تحضر أسواق العرب الموسمية قبل الإسلام⁽²⁾. وكانت مدينة صنعاء مركزاً لأسواق تجارية هامة منها «سوق صنعاء» التي تقام في النصف الأول من شهر رمضان وظلت منطقة صنعاء بعد الإسلام مركزاً تجارياً هاماً ووجهة لكل تاجر⁽³⁾. وعلينا هنا أن نميّز بين الأسواق وبين المنشآت التجارية في بلاد اليمن، فهناك «ساحة السوق» أو «السوق الساحة» وهو ما يشبه إلى حد كبير الأجر اليونانية، و«الفوروم الروماني»⁽⁴⁾.

(1) ابن جبير، الرحلة، ص 64 - 66.

(2) كانت الأسواق في الجزيرة العربية في مرحلة ما قبل الإسلام دورة اقتصادية متكاملة تنقل التجارة والثقافة من شرق الجزيرة إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها وهي بديل أبقته الحاجة العربية إلى دوام العلاقات الاقتصادية وخاصة بعد انهيار العواصم العربية التي كانت تقوم بعمليات التصدير والاستيراد والعلاقات التجارية المتنوعة. أنظر عبد الرحمن الطيب الأنصاري، مقدمة لكتاب سوق صنعاء (مترجم) ص 3 - 4.

(3) يوسف محمد عبد الله، أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، بيروت، ص 114.

(4) الأجر عند الإغريق والفوروم عند الرومان عبارة عن ميدان كبير يتوسط المدينة تحوطه المعابد والأبنية الرسمية مثل الأبنية المخصصة للمهام الدينية أو القانونية أو الاقتصادية ويوجد بمدينة روما الكثير منها، وأشهر الميادين الرومانية كان يسمى [الفوروم رومانوم Forum Romanum] وهو أقدم الميادين الرومانية، وقد شيد في واد يقع بين تلال مدينة روما وكان يحتوي على أبنية كبيرة منها المباني الدينية والمحلات التجارية، كما كان يحتوي على تماثيل ونصب تذكارية ويشبه الميدان السابق «فوروم ترايان Forum Trajan».

والبازرات والقيساريات، والخانات والوكائل⁽¹⁾.

وعلى الرغم من انتشار المنشآت التجارية في بلاد اليمن إلا أن مدينة صنعاء حوت العدد الأكبر من هذه المباني⁽²⁾، لكنّ المشكلة أنّ المعلومات التي وصلتنا عن أحوال المدينة من الناحية الاقتصادية والتجارية يعتبر قليل نسبياً، فقد قام العالم النمساوي «فلتر دوستال» بتحديد تصميم السوق الرئيسي بالمدينة وحدوده الخارجية، وذكر أنه سوق ينتمي إلى نمط الأسواق المكشوفة فحوانيت الحرفيين وأجزاء السوق تشكل مركزاً متصلاً بأسواق فرعية محيطة به وهي سوق باب اليمن، وسوق البقر، وسوق الجمال⁽³⁾.

وقد ذكر الهمداني في كتابه «صفة جزيرة العرب» أنواع الثمار التي تنبت في صنعاء مثل العنب بأصنافه الكثيرة والخوخ والتفاح واللوز والكمثرى وأصناف البقول وأنواع الحبوب وألوان الطعام والخبز والحلبة وذكر ضمن عجائب اليمن العسل والسمن والمن واللبان والتمر وغيرها⁽⁴⁾. كما كانت في صنعاء أسواق للبز والحب والحريز وسوق للزبيب وسوق العلف وسوق العنب وسوق الفضة وسوق القشر، وسوق القصب وسوق الكوافي وسوق الخياطة، وسوق الملح وسوق النحاس. ويلاحظ أن كل هذه الأسواق كانت تحوي سقايات للشرب⁽⁵⁾. وبالإضافة إلى ما سبق أشار الرازي في كتابه تاريخ مدينة صنعاء⁽⁶⁾، إلى سوق «باذان»، وقد ورد ذكر سوق باذان فيما رواه القاضي الحسين بن محمد، وذكر القاضي أن

(1) الوكائل، مفردها وكالة ولم تستعمل إلا في الدلالة على المنشآت التجارية الإسلامية في مصر. أنظر صالح لمعي، المرجع السابق، ص 59.

(2) أنظر يوسف عبد الله، المرجع السابق، ص 116.

(3) Dostal, Walter, Der Markt von sanca, Wien 1979, S. 7

(4) يوسف عبد الله، المرجع السابق، ص 117.

(5) القاضي اسماعيل الأكوح، لمحة تاريخية عن صنعاء، «الإكليل»، ص 9.

(6) الرازي، ت 460هـ/1068م، تاريخ مدينة صنعاء «تحقيق حسين بن عبد الله العمري»، صنعاء جزآن، 1981.

هذا كان يُعرف بسوق ذمار⁽¹⁾. كما ذكر الرازي أيضاً سوق العراقيين⁽²⁾، ويبدو أنه كان خاصاً بالتجار العراقيين أو التجارة الآتية من العراق. ومن الأسواق التي ورد ذكرها عند الرازي أيضاً سوق العطارين⁽³⁾. واستمرت أهمية أسواق صنعاء طيلة العصور الإسلامية فيشير الرازي إلى أن الخليفة هارون الرشيد أمير المؤمنين الذي ولي الخلافة سنة سبعين ومائة وكانت مدة دولته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وسبعة عشر يوماً - وَجَّهَ إِلَى صَنْعَاءِ وَوَلَاةَ فَكَانَ فِي مَن وَجَّهَ مِنَ الْأَمْرَاءِ إِلَى صَنْعَاءِ مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدِ الْبُرْمَكِيِّ وَذَلِكَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَمَانِينَ وَمِائَةً، فَبَنَى دَارَ الْبِرَامِكَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْرَفُ بِدَارِ الضَّرْبِ بِصَنْعَاءِ وَكَانَتْ هَذِهِ الدَّارُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ سُوقُ التَّبَانِينِ وَكَانَتْ لَهُ أَبْوَابٌ بِالْعُقُودِ الْكِبَارِ وَكَانَتْ دَاراً وَاسِعَةً⁽⁴⁾. وإذا قارنا بين ما ورد من أسواق عند الرازي بما هو موجود حتى الآن من أسواق لوجدنا أن هناك العديد من الأسواق التي لم ترد عند الرازي مثل أسواق الخراطين والسمكرية وصانعي خراطيم المدعات «نوع من النرجيلة» والخياطين وصنّاع الحبال بالإضافة إلى سوق القات والحبوب والعبب والحميم والجمال⁽⁵⁾. كما يبدو تشابه بين نظام السوق في عصر الرازي مع النظام الموجود الآن، فعلى سبيل المثال نجد أن تقسيم الرازي يشير إلى مجموعات من الأسواق الإنتاجية مثل صنّاع المعادن والأخشاب والنسيج بالإضافة إلى الخبازين والطحّانين، أما صنّاع الفضيّات فقد ذكرهم مع سوق الأقمشة كما حدد مجموعة من الأسواق الاستهلاكية مثل مجموعة الأسواق المخصصة المستوردة مثل العطارين وتجار الحرير وتجار الأدوات المنزلية⁽⁶⁾.

مما سبق يتضح أن بلاد اليمن كانت مركزاً تجارياً هاماً لذلك كان من الطبيعي أن تبنى مجموعة مبان تستخدم لشؤون التجارة، تسمى سماسر، والسمسرة هي نوع

(1) الرازي، المصدر نفسه، ص 85.

(2) المصدر نفسه، ص 112.

(3) المصدر نفسه، ص 32.

(4) المصدر نفسه، ص 106.

(5) Dostal, Walter, op.cit, S. 20

(6) Ibid, S. 21, 22.

من المباني التي تجمع في داخلها بين وظائف الخان أو الفندق والوكالة⁽¹⁾، غير أنها أقرب إلى وظيفة «الوكالة» المتعارف عليها في مصر والشام. والتفسير اللغوي لكلمة وكالة أقرب إلى كلمة سمسرة فالوكالة هي أن يقوم شخص بالبيع بدلاً من التاجر الأصلي، بتوكيل منه، وبالتالي فليست هناك ضرورة لحضور البائع أو المشتري شخصياً، اعتماداً على هذا الوكيل الموجود بالمنشأة التجارية باسم الوكالة. وبالنسبة للسمسرة نجد أن الأصل فيها أن يرسل التاجر ببضاعته ليتم بيعها من قبل تاجر يقيمون بالسمسرة، ومن هنا نرى تشابهاً في وظيفة السمسرة مع وظيفة الوكالة، وهي وظيفة تشبه إلى حد كبير وظيفة (البورصة)⁽²⁾. ويبدو أن هناك إشرافاً حكومياً على كل من السمسرة والوكالة وذلك بواسطة موظف حكومي، كان يعرف باسم شيخ التجار أو شاهبندر التجار، كذلك يتضح التشابه بين الوكالة والسمسرة فيما يتعلق بملكية هذه المنشآت والتي كان بعضها ملكاً للحكومة⁽³⁾ وبعضها الآخر كان ملكاً للأفراد الذين كانوا يقومون ببناء وإدارة وكالات وسماسر خاصة وكان يشترط فيمن يقوم ببناء مثل هذه المنشآت التجارية من وكائل وسماسر تسمى باسم مؤسسها، كما كانت تنتقل من صاحبها لورثته بعد وفاته، كما كان صاحب الوكالة أو السمسرة يسمى وكيل التجار أو شيخ التجار أو أحياناً شاهبندر التجار⁽⁴⁾.

ثانياً: الوصف المعماري:

إن التصميم المعماري للسمسرة أنها مبنى يدور حول فناء مركزي وهو نفس الشكل المعماري للوكالة، وكانت السماسر تزود بخزانات لمياه الشرب للآدميين، وأيضاً أحواض لشرب الدواب وهذان العنصران ظهرا أيضاً في عمارة الوكائل في

(1) Lewcook., L, The Building of supermarket., London, 1983, p. 277

(2) Goitein, D., A Medeterranean Society in the Middle Ages, New York, 1967, p. 345.

(3) Ibid, p. 188

(4) أشارت وثائق الجنيزة، إلى أن الوكالات كانت منتشرة في القاهرة والفسطاط والإسكندرية ودمياط كما كانت في المدن الصغيرة.

مصر⁽¹⁾ والشام⁽²⁾. وقد انتشرت السماسر في كل أنحاء اليمن وخاصة بالقرب من الطرق التجارية، والمرافئ الساحلية، وكذلك المراكز التجارية الهامة. وتعتبر سمسرة معجل القبتين بين نخلة الحمراء وصنعاء (وهي منطقة على طريق صنعاء - تعز) وتقع الآن بالقرب من طريق السيارات بين تعز وصنعاء. والبناء عبارة عن منزل حجري، وقد ذكر أن الإمام المؤيد (1053هـ/1643م) أصلح سمسرة القبتين بعد أن دمرها الحاج أحمد الأسدي وقد احتوت هذه السمسرة على خزائين كبيرين مملوءين بالماء وكذلك حوض لشرب الدواب، ولكن هذه السمسرة دمرت تماماً ولم يبق غير أطلال منها⁽³⁾. وعلى الطريق الشمالي من صنعاء توجد سمسرة معمر والتي قيل إنها بنيت بواسطة الملكة أروى⁽⁴⁾. والمكان الذي بنيت فيه هذه السمسرة يبدو مرتفعاً وكأنه جبل، وكان يعرف باسم جبل مرمل وهو يقع على مسافة ثلاثة فراسخ من صنعاء⁽⁵⁾. ومما هو جدير بالذكر أن مقهايةً حجريةً تقع بين هذه السمسرة وبين صنعاء وتسمى هذه السمسرة أيضاً «مطرح» وقد بناها سنان باشا أثناء حكم العثمانيين الأول في اليمن⁽⁶⁾. ويوجد في منطقة وادي ظهر سمسرة «المقاهوي» ويبدو أنها كانت استراحةً خاصةً يحرص الإمام يحيى، وضيوفه، الذين كانوا يقومون بزيارته في دار الحجر، على التردد إليها. ويوجد بمدينة صنعاء سمسرة تعرف باسم سمسرة يحيى بن قاسم الفوداني⁽⁷⁾. كما بنى الإمام المتوكل اسماعيل

(1) صالح لمعي، المرجع السابق، ص 59.

(2) عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، خصائصها وآثارها في سورية، دمشق، 1979، ص ص 188 - 189.

(3) Lewcook, R. op.cit, p. 277

(4) كان أهل اليمن يخاطبونها بلقب «سيدتنا الحرة الملكة» حباً لها وإجلالاً لها وهي: أروى بنت أحمد بن محمد بن القاسم الصليحي ولدت سنة أربع وأربع مئة، وقد اشتهرت باسم «سيدة» ويقال أن اسمها أروى.

(5) Lewcook, R. op.cit, p. 278

(6) Ibid, p. 277

(7) Ibid, p. 277

سمسرة في السوق وجعلها وقفاً للجامع، وذلك عندما قام بتوسعة وزيادة في مساحة المسجد في مكان يسمى الحجين 1068هـ/1657م كما أمر بعمل بركة ومطاهير وسقاية للشرب قرب الجامع⁽¹⁾. وبنيت في أيام الخليفة المتوكل سمسرة محمد بن الحسين بن القاسم وكانت تسمى بسمسرة محمد بن أحسن، وتنسب هذه السمسرة للأمير القاسم السيد محمد بن الحسين، والذي عاش فيما بين 1054هـ - 1079هـ/1644م - 1668م، ويقال أن هذه السمسرة لم يبن مثلها في صنعاء ولا في اليمن بصفة عامة سواء من حيث اتساع مبانيها أو ارتفاعها، لأنها تتألف من طوابق متعددة، تشتمل على نحو مائة واثنين وعشرين حجرة، وكل طابق له طابع بنائي يختلف عن الآخر، وأصبحت هذه السمسرة - كما أشرنا - واحدة من أضخم المباني في صنعاء، وكان يقصدها التجار من كل مكان⁽²⁾. كما يوجد في صنعاء سمسرة أخرى بناها أيضاً محمد بن الحسين بن القاسم وتقع في سوق البز أو سوق القماش، وقد قيل إن هذه السمسرة كانت تعتبر بنكاً لصنعاء، وكانت أمانة هذا البنك يشغل وظيفتها الحاج عبد الله بن سهوب، حيث كان القبيلي يترك عنده أمواله، مقابل أن يحصل أمين البنك على فائدة تدفع بنسبة مئوية معروفة، و«ربع قرش فرنسي لكل مئة»⁽³⁾.

وظلت هذه السمسرة قائمة حتى القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، وقد استخدمت أيضاً كمخازن، واستعملت كفندق للتجار أثناء إقامتهم في مدينة صنعاء⁽⁴⁾. ومن السماسر الشهيرة في مدينة صنعاء، سمسرة

(1) Ibid, p. 278

(2) Ibid, p. 278

(3) سلبت صنعاء ونهبت بعد مقتل الإمام يحيى، وفقد الكثير من الناس ثرواتهم ومن هؤلاء عائلة السنيديار وكانت هذه العائلة من أغنى عائلات صنعاء في أيام الحكم العثماني.

(4) يعرف الشخص المشرف على السمسرة باسم السمساري وهو الذي يقوم بتأجير السمسرة من الوقف، ويعرف هذا السمساري باسم «قباض السمسرة» وسوف نتناول الوظائف بالتفصيل في البحث.

البوعاتي، وتقع هذه السمصرة في سوق البز (سوق القماش) أو الملابس ويعتقد أنها من أقدم السماسر المزودة بأماكن لجلوس النزلاء تشبه الدكك الحجرية، فكان النزلاء يجلسون عليها أو يستلقون عليها للنوم، كما أن هذه السمصرة كانت مزودةً بأماكن لوقوف الحمير والدواب الأخرى «إسطبل» ويلاحظ أن الطابق الأرضي من السمصرة كان مخصصاً كإسطبل للحيوانات، فيما عدا بعض الغرف التي كانت تخصص للنوم لحفظ البضائع، كما توجد غرفة في مدخل السمصرة تستخدم لإقامة الحارس الذي كان يتحكم بدوره في الدخول والخروج من السمصرة، وكذلك في مراقبة البضائع والحيوانات، ويحصل على الرسوم، ويلاحظ أن مستوى الأرض مرتفع تقوم فوكة بائة ضخمة ذات عقود مدبية، ويضاء المكان بواسطة فتحتين صغيرتين للإضاءة في السقف⁽¹⁾. وفي مؤخرة السمصرة وعند الدخول إليها من الشارع من الجهة الشمالية، توجد منطقة منفصلة تماماً في الطابق الأرضي تشغلها محلات، وبعض الورش الخاصة بعمل الشبايك الجصية، كما يوجد سلم يؤدي إلى الطابق العلوي، ويحوي الطابق العلوي بدوره غرف النوم والراحة. وبالنسبة للجزء الجنوبي من السمصرة فإن جدرانها كانت كلها مبنية من أحجار قديمة متأثرة بعملية التجديد ومدعمة بمجموعة من الروابط الخشبية الضخمة. ويبدو أن جزءاً كبيراً من السمصرة قد أعيد بناؤه بأحجار مشددة حتى مستوى ارتفاع الفناء وفوق ذلك يوجد جزء مبني بالآجر، ويلاحظ وجود أربعة عقود مركزية من الآجر والأحجار المعاد بناؤها في شكل نصف دائري⁽²⁾. وتعتبر سمصرة «المجة» من أكبر السماسر الباقية حتى الآن في مدينة صنعاء وهي بناء يستخدم الآن كمخزن ويعتقد أن عمر هذا البناء أكثر من ثلاثمائة سنة وهي تلي سمصرة محمد حسن المنصوري في القدم. ولهذه السمصرة واجهة على الشارع وبها عدد من الحوائيت على جانبي المدخل الذي يقع في نصف الواجهة تقريباً، ويدخل إليها من باب يؤدي إلى ممر بداخل المبنى وبداخل هذا

Lewcook, R., op.cit, p. 281 (1)

Ibid, p. 282 (2)

الممر تقع أيضاً غرفة الحارس⁽¹⁾. ويفتح هذا الممر على منطقة الإسطبل. ويقوم السقف على أعمدة طويلة يعود معظمها إلى فترة ما قبل الإسلام ويتوسط البناء صحن يحيطه من جوانبه الأربعة غرف (مخازن) في طابقين. ويلاحظ أن الصحن يسمح بدخول قدر كاف من الشمس لإضاءة المكان، وفي مقابل ممر المدخل يوجد باب عريض يفتح على إسطبل أكبر وأعلى من الأول والسقف مقام على أعمدة في ثلاثة مستويات تظهر في الجوانب الأربعة للسمسرة. ويلاحظ أن غرف النوم والمخازن تتقدم السقيفة القائمة على الأعمدة التي سبق وأشرنا إليها، كما يوجد عمودان طويلان في الوسط مبنيان من أسطوانات حجرية، ويؤدي السلم إلى الطابقين العلويين للمخازن. ومبنى سمسرة المجة مشيد من الحجر حتى ارتفاع الإسطبل وبالأجر من فوقه وذلك بهيئة قوالب متناسقة الشكل، تظهر بوضوح في العقود التي تتقدم الصف الأول من غرف السكن⁽²⁾.

ويوجد بمدينة صنعاء سمسرة ضخمة تعرف باسم سمسرة محمد بن حسن وهي أكبر السماسر في المدينة، ولكن حالتها سيئة للغاية، وذلك لأنها نُهبت في سنة 1948، ومنذ ذلك الحين أُغلقت وأصبح من الصعب دخولها لدراستها، إلا أن الواجهة يمكن تمييزها وتشير إلى أن المبنى كان أكبر من سمسرة المجة بنحو مرة ونصف، ويبدو من السمسرة أن لها إسطبلين بفناءين، ويدخل إليها من سوق تغيير العملة، ويلاحظ أن نمط البناء يتشابه من حيث التصميم والزخرفة مع نمط البناء الذي اتبع في سمسرة المجة، ولكن يلاحظ من جهة أخرى أن مستوى الوحدات الزخرفية أقل من حيث الجمال من السمسرة السابقة ولهذا يمكن اعتبار سمسرة محمد بن حسن أحدث تاريخياً من سمسرة المجة⁽³⁾.

ويوجد أيضاً بمدينة صنعاء سمسرة محمد بن هاشم المنصور، ويقال إنه جد

(1) عبارة عن غرفة صغيرة بها دولاب خشبي فقط ويجلس هذا الحارس ليراقب دخول وخروج البضائع.

(2) Lewcook, R. op.cit, p. 283

(3) Ibid, p. 284

الإمام يحيى لأُمَّه، وتعرف الآن بسمرة النحاس وهي كتلة كبيرة ترتفع بثلاث طوابق عن الأرض وهي محاطة ببوائك تسمح بالمرور والوصول إلى المخازن، ويتوسطها فناء تطل عليه غرف السكن والمبنى من الحجر المنحوت بمهارة عالية، إلا أن هذه السمسة تبدو من الناحية التاريخية أحدث من مجموعة السماسر السابقة والتي وصفناها. وتوجد بالقرب من المبنى السابق سمسة تعرف بسمسة يحيى بن ثابت وهي وقف خاص، وتدور حولها قصص كثيرة تشير إلى أنها ترجع زمنياً إلى عهد سيف بن ذي يزن⁽¹⁾. وإلى جوارها توجد سمسة التوابل والتي قيل إنها ترجع إلى فترة زمنية قديمة عن سوق الميزان وهذه السمسة عبارة عن مبنى صغير له فناء داخلي تحيط به مجموعة من الغرف التي تستخدم كمخازن للبضائع⁽²⁾. ويوجد في صنعاء أيضاً مجموعة من السماسر الصغيرة مثل سمسة الصيرفي، وسمسة العمراني، وسمسة وردة، وسمسة يحيى بن قاسم وهي مبان أصغر بكثير من المباني السابقة ولكنها تتفق معها بالنسبة للتصميم المعماري ويتشابه مع هذه المجموعة عدة سماسر أخرى بعيدة نسبياً عن السوق القديم لمدينة صنعاء. فعلى سبيل المثال يوجد في ناحية باب شعوب وباب المسبح والقاع⁽³⁾ عدة سماسر أخرى صغيرة، ويستخدم قسم منها حالياً كأسطبلات وأماكن للتسلية والراحة في المساء. أما بالنسبة للسماسر الأكبر فهي مخصصة فقط لخزن البضائع⁽⁴⁾. وإلى جوار مجموعات السماسر السابقة والتي كانت تلعب دور «الوكالات» يوجد عدد من الأبنية التجارية، والتي اختلفت وظائفها عن المنشآت السابقة فعلى سبيل المثال خصص بعضها لوزن وضبط البضائع، فيوجد في صنعاء وحدها اثنان لضبط ووزن البن (القشر) وواحدة لوزن

(1) Ibid, p. 284

(2) Ibid, p. 285

(3) غير معروف على وجه الدقة إلى أي فترة تاريخية ترجع أسوار مدينة صنعاء ومن الذي قام بتسوير المدينة لأول مرة، على أن معظم أبواب هذا السور قد تهدمت ولم يبق في حالة جيدة سوى باب اليمن.

(4) Lewcook, R. op.cit, p. 285

الزبيب⁽¹⁾. ويطلق أيضاً على المنشأة الخاصة بوزن الزبيب اسم سمسرة الزبيب أو جمرك الزبيب، كما تعرف أيضاً باسم سمسرة يحيى بن قاسم الغاوراني أو سوق العنب، وتصميم المبنى عبارة عن فناء مفتوح يدخل إليه من مدخل معقود، والمبنى حتى مستوى الطابق الأرضي بالحجر، ويبدو أن مخازن علوية قد أضيفت إليه في عملية إعادة البناء أثناء القرن الحالي. أما المبنى المخصص لوزن البن (القشر) فيعرف باسم سمسرة الميزان أو سمسرة القشر، ويعتبر من أشهر المباني التجارية في مدينة صنعاء، - ومما هو جدير بالذكر أن هناك مبنى صغيراً آخر يحمل اسم سمسرة القشر ولكنه أحدث تاريخاً من المبنى الذي نقوم بوصفه - الآن - ويفصل بين المبنيين حالياً سوق للقات. ويبدو أن سمسرة القشر الأصلية كانت المركز الحكومي للجمرك وكانت كل التجارة التي تدخل مدينة صنعاء توزن فيها، فهي ميزان الدولة وفي مقابل سمسرة القشر الكبيرة يوجد سوق يعرف باسم سوق الحب أو سوق الطعام قيل أن عمره حوالي ثلاث مائة عام، أما عمر السمسرة نفسها فقيل نحو ستمائة عام⁽²⁾، وهي وقف خاص بمسجد صلاح الدين محمد بن علي (1391م/793هـ) والبناء من حجر الحبش الأسود، كما استعملت للأرضية أنواع من الحجر السابق، ويبدو واضحاً استخدام أحجار من عمائر سابقة على الإسلام ومن ذلك وجود أعمدة قديمة وقطع من النقوش الحجرية بالحائط قرب المدخل⁽³⁾. ويتألف المبنى من الناحية المعمارية من فناء كبير مربع طول

(1) يوجد في سوريا بناء يتشابه مع هذا البناء ويعرف باسم خان الكمرك «الجمرك» ويقع في منطقة الأسواق الرئيسية بناه الوالي محمد باشا حوالي سنة 982هـ/1574م وهو خان كبير فيه صحن مكشوف، يتوسطه مسجد سداسي الشكل مسقوف بقبة وتتوزع في داخله المحلات التجارية. وفي الطابق العلوي قاعات وأجنحة للسكن، كانت تقطنها في الماضي الجاليات التجارية الأجنبية ويتقدم الخان على طول واجهته الشمالية سوق متقن البناء تتوسطه قبة عالية عند باب الخان، شغلت زواياها بالمقرنصات وباب الخان واسع غني بالزخارف، أنظر عبد القادر الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، خصائصها، وآثارها في سورية، ص 232.

(2) Lewcook, R. op.cit, p. 286

(3) Ibid, p. 286

ضلعه تسعة أمتار تقريباً، يفتح إلى السماء (مكشوف) ومحاط ببائكة من طابق واحد، ويوجد خلفها مخازن للبن والقشر، أما الموازين فتقع عند البائكة الشمالية في مواجهة المدخل الرئيسي مباشرة، ويقع المدخل الرئيسي في الجانب الجنوبي. ويلاحظ أن العقود التي تتألف منها البوائك لها تيجان منحوتة متنوعة الأشكال مما يرجح أنها مأخوذة عن آثار قديمة. أما المدخل الثاني فيقع في الجهة الشرقية ويفتح على سوق صياغ الفضة الذي لم يعد يستخدم حالياً، أما عبوات القشر (البن) فتحفظ في مخازن. وهناك منصتان (مصاطب مرتفعة) مبنية بالحجر تجاور الموازين وعليها يضع الحمالون الأكياس وينتظرون دورهم للميزان، كما توجد بالمدخل الجنوبي وعلى يسار الداخل سقاية للشرب صغيرة، بها حوض صغير، والمبنى أقرب ما يكون للأبنية الرسمية ففيه تجمع الرسوم الحكومية المفروضة على البضائع واستمر هذا المبنى يلعب دور الجمر كطيلة العصر العثماني، أما الآن فيستخدم كمخزن، ويلاحظ أن الجانب الأيسر بعد المدخل عبارة عن بائكة تتألف من صف من العقود، أما الجهة اليمنى فتتألف من غرفة الحارس الذي يراقب كل من يغادر المبنى، ويخبر أصحاب الأكياس والأجولة بالخارجين لكي يتلافوا السرقة، وكان الحارس يتقاضى عن كل جوال نصف ريال كرسوم حفظ وحراسة⁽¹⁾. وفي وسط الجانب الشمالي يوجد سلم واسع يؤدي إلى الطابق العلوي حيث توجد مخازن أخرى وبعض غرف المعيشة تحيط بالطابق الموجود أعلى البوائك. وهذا الطابق يحتوي على عدد من دورات المياه والمغاسل بالإضافة إلى بعض الحجرات الصغيرة التي تستخدم كمخازن، ويلاحظ وجود ظلل في الفناء لكي يستريح الحمالون أسفلها.

وإلى جوار المنشآت السابقة نجد بعض المخازن المفتوحة والتي يطلق عليها سماسر وهي مخازن ذات أفنية مكشوفة وهي موجودة بصفة عامة في ضواحي الأسواق استخدم بعضها كمخازن للخشب وللجمال وأحياناً كانت تزود بغرف

صغيرة لخزن البضائع ومن أبرز الأمثلة على ذلك سمسرة المتوكل⁽¹⁾.

وتوجد أيضاً مجموعة من المباني المخصصة لإقامة التجار والتي تشبه الفنادق، أما عن التصميم المعماري لهذه المباني فهي عبارة عن صفوف من غرف السكن تطل على فناء في الوسط، وفي هذه الغرف يمكن للتجار الإقامة للراحة وتناول الطعام والشراب. ومن أمثلة هذا النوع من المباني سمسرة الخان وتسمى أيضاً سمسرة المزين في حارة الصليحي وهي حارة قديمة، وكانت تعرف أيام العثمانيين باسم سوق النصارى لأن عدداً من اليونانيين والإيطاليين كانوا يعيشون فيها. ولهذا الفندق مدخلان من الجنوب والغرب، ولا سقاية بجوار مدخل الشارع من الجهة الجنوبية، أما الباب الغربي فإنه يستخدم لحيوانات المسافرين ولخزن الكميات الصغيرة من البضائع حيث كانت تخزن في فناء صغير يطل على ممرات توصل إلى حجرات النزلاء أو مخازن أسفل الممرات. أما المدخل الغربي فكان يفتح على الشارع الرئيسي للمدينة القديمة وتوجد على جانبي الباب الرئيسي مجموعات من الدكاكين الصغيرة، كما نجد مقاعد حجرية يجلس النزلاء عليها، كما يحتوي الفناء على مظلة لجلوس النزلاء في الطقس الحار، كما يوجد سلم في الركن الجنوبي الغربي يؤدي إلى حجرات النوم والحمامات بالإضافة إلى سكن صاحب الفندق أو المشرف عليه وهو عادةً ما يقع فوق المدخل⁽²⁾.

وتعتبر المباني السابقة أكثر مباني السماسر حفظاً، ولا زال بعضها يستعمل في بعض وظائفه، بينما أغلق البعض الآخر، أو استعمل كمراكز للحرفيين. ولا يعني الوصف السابق إحصاءً عددياً لعدد السماسر الموجودة بقدر ما يشير إلى أبرزها وأكثرها حفظاً، ويوجد عدد آخر في حالة سيئة لا تسمح بدراسته والتعرف على وظائفه.

Ibid, p. 291 (1)

Ibid, p. 292 (2)

ثالثاً: الدراسة التحليلية والمقارنة: الإدارة داخل السمسرة:

تعتبر السماسر منشأة تجارية ضخمة ومن ثم لا بد أن تدار بطريقة دقيقة تكفل لها أداء وظيفتها على أكمل وجه، على أن المصادر التاريخية لم تعطنا وصفاً محدداً لطريقة إدارة السمسرة، إلا أننا من خلال المعلومات المتناثرة نستطيع أن نضع تصوراً لعملية إدارة هذه السماسر، بالإضافة إلى معرفة أهم الأشخاص الذين لهم صلة بهذه الإدارة.

ويأتي في مقدمة من يعملون بالسمسرة «السمسري» وهو صاحب البناء المعروف باسم السمسرة ويسمى المبنى باسمه في أغلب الأحيان، ويبدو أن مهمته هي الإشراف على إدارة السمسرة وتحصيل الرسوم المقررة على البضائع التي تخزن في السمسرة التي يملكها أو يشرف على إدارتها، ويشترط في السمسري الأمانة وعدم الخيانة وحفظ أموال التجار. وللسمسري الخرج (المال) المعتاد على المشتري، وما شراه صاحب صنعاء لبيته ليس عليه شيء⁽¹⁾. ويبدو أن كل سمسري كان يحدد سعراً لدخول البضائع إلى سمسرته وسعراً لخروجها منه فعلى سبيل المثال نجد أن الخرج للسمسري فيما يتعلق بالبز الأبيض كان على الرابطة بقشة وللحمال بقشة⁽²⁾.

ومما سبق يتضح أن السمسري هو الشخصية الرئيسية فيما يتعلق بالسمسرة وإدارتها باعتباره مالكا لها أو مشرفاً عليها. ولذا كانت تخصصُّ له حجرة فوق المدخل ليستطيع من خلالها التحقق من سير العمل في السمسرة ومراقبة النظام بها. ويستطيع السمسري أن ينيب عنه شخصاً في إدارة السمسرة كل الوقت أو بعض الوقت، وتشبه شخصية السمسري إلى حدٍّ كبير شخصية الوكيل فيما يتعلق بالوكالات في مصر والشام، وتتشابه وظيفته أيضاً مع وظيفة

(1) حسين بن أحمد السياغي، قانون صنعاء «دراسات يمنية»، العدد العاشر 1982، ص 137.

(2) المرجع نفسه، ص 135.

شيخ التجار أو شاهبندر التجار إلا أن شاهبندر التجار أو الوكيل كان موظفاً حكومياً في بعض الأحيان. والسمسري كان في العادة أحد كبار التجار ولذا كان يصرّح له ببناء سمسرة متخصصة أو سمسرة لتخزين البضائع، إلا أن السماسر التي تقوم بجمركة البضائع ووزنها كانت تابعة للحكومة بصفة دائمة والأمر نفسه كان متبعاً في مصر. فالجمارك كانت تمثل سلطة الحكومة ومن هنا كانت تابعة لها، أما الوكائل فكان يسمح للأفراد من كبار التجار ذوي السمعة الطيبة والذين كان يثق بهم السلطان ببناء هذه المنشآت التجارية وإدارتها. ومن الوظائف الهامة التي لها علاقة بالسمسرة «شيخ السوق» أو «عاقل السوق» وقد يكون من أصحاب السماسر أو من غير أصحابها، ومن وظائفه ضبط أهل السوق أو السمسرة وتسلم أموال الغرباء والإشراف على الحراسة عند اجتياح المدينة⁽¹⁾.

ويشترط في شيخ السوق أن يتصف بالعدل، ويبدو أن كل نوع من البضائع كان له شيخ، فعلى سبيل المثال كان هنا شيخ سوق السلب، وشيخ لسوق الحنا، وشيخ لسوق الملح، وشيخ لسوق القشر (البن). ومن المعروف أن هناك علاقة أساسية بين السوق والسمسرة، فكانت السمسرة بمثابة المبنى الإداري للتجار وكانت تتوسط السوق، ومن هنا كان لشيخ السوق دور في إدارة السمسرة، شأن دوره في الإشراف على السوق كله. ومن الممكن أن يكون شيخ السوق هو نفسه السمسري، ولكن في معظم الأحيان كانا شخصيتين. ومن وظائف شيخ السوق أيضاً تسعير البضائع، وتحديد أثمانها. ومن الوظائف التي عمل أصحابها في السماسر «الجلاب» وهو الشخص الذي يقوم باستجلاب البضائع إلى الأسواق والسماسر. وأحياناً يكون هؤلاء الجلاب من الأعراب، ولذا كان إذا ثبت عليه غش لا يسمح له باستجلاب بضائع، وإن كان من أهل المدينة استحق الحبس على الغش⁽²⁾. ومن الأشخاص الذين يقومون بالعمل في

(1) المرجع نفسه، ص ص 153 - 154.

(2) المرجع نفسه، ص ص 138 - 139.

داخل السمسرة أيضاً «الدلال» وهو الشخص الذي يتوسط بين البائع والمشتري ويحصل في مقابل ذلك على دلالة وهي أجرة ناتجة عما يبيعه من أي سلعة، وتقوم مهمته على إحضار البائع والمشتري وينظر بينهم في كل سلعة تباع⁽¹⁾. ويبدو أنه لم يكن يسمح للدلال ببيع أي بضاعة في داخل أو خارج السمسرة دون أن يطلع البائع والمشتري على ما باعه وألا يمنع من الدلالة لما يترتب عليه من الخيانة بين البائع والمشتري.. ويبدو أن الدلال لم يكن مسموحاً له بشراء السلع التي يقوم بالدلالة فيها، ومن المحتمل أن عملية الدلالة كانت تتم في «صحن» السمسرة باعتباره مكاناً واسعاً للمناظرة بين البائع والمشتري، كما أنه يسمح بتواجد عينات من البضائع المراد بيعها. ويبدو أن الدلال كان يتنقل بين غرف البائعين والمشتريين في داخل السمسرة لإتمام الصفقات التجارية. ومن الشخصيات التي كانت تعمل بالسماسر «الكيالين» وهي طائفة يشترط فيها الأمانة وعدم الخيانة؛ فقد كان يعمل - على سبيل المثال - في السماسر المخصصة لبيع الحبوب عشرون نفرأ «كيالاً»، وكانوا يقبضون الكيالة المعتادة على القدح: من الثمن من البائع، ونصف الثمن من المشتري. وكان من وظائف الكيالين الحراسة عند اجتياح المدينة، وكانت الحراسة تشمل حراسة الأبواب، إذا كانت هذه الأبواب في حاجة إلى إصلاح، وبقيت من غير تغليق وكان هؤلاء الكيالون يسمون «المعايرين» في بعض الأحيان⁽²⁾. ومن الشخصيات الهامة التي كانت لها صلة بالسمسرة شخصية «شيخ الشرطة» أو «شيخ الليل» وهو شخص يقوم على تحقيق العدل والأمان لكل عناصر السمسرة والسوق حسب قواعد الأحكام الشرعية، وكان له أعوان ينتشرون أثناء الليل لحراسة السماسر⁽³⁾. ومن الشخصيات الإدارية بالسمسرة «كاتب السمسرة» ويتضح من اسم وظيفته أنه شخص يهتم بإثبات ما يدخل من بضائع إلى السمسرة وما يخرج منها وذلك في دفاتر خاصة تحفظ بالسمسرة للرجوع

(1) المرجع نفسه، ص 135.

(2) المرجع نفسه، ص 139.

(3) المرجع نفسه، ص 146.

إليها عند الضرورة⁽¹⁾. ويعتبر «أولاد السمسرة» أو «أولاد السوق» من العاملين الذين يقومون بتنظيف السمسرة بالكنس وحمل القمامة إلى البرية وكانوا يعرفون أيضاً باسم «شقاء الكيالين»⁽²⁾. أما فيما يتعلق «بحارس السمسرة» فكان شخصاً يعهد إليه بحراسة مدخل السمسرة والتحقق من شخصية الداخلين إلى السمسرة أو الخارجين منها والقيام بتفتيشهم⁽³⁾. و«الحمالون» هم مجموعة من الأشخاص الذين كانوا يقومون بحمل البضائع من خارج السمسرة إلى داخلها أو بالعكس وكان لا يجوز أن يعمل حمال داخل السمسرة إلا من خلال ضمان واضح من قبل «عاقل الحمالين»، ويلزم كاتب السمسرة بكتابة التزام ضمانى بحضور الحمال والعاقل، ويحفظ هذا الالتزام عند السمسري⁽⁴⁾. وقد حدد القانون ما يحصل عليه هؤلاء الحمالون في كل سمسرة من أجر مقابل ما يحملونه، فعلى سبيل المثال كانت أجرة معارة التبن (حمل التبن) بقشة واحدة، وأجرة حمال «التبناك» أربع بقش من البائع ومن المشتري. وكانت أجرة الحمال الذي يحمل من حلقة القشر والسمن إلى السماسر بقشتين، وأجرة الحمال من الحلقة إلى سوق العنب وسمسرة محمد بن حسن بقشتين، وأجرة من يحمل من الحلقة إلى سمسرة السليط وسمسرة «الصورعة» وسمسرة «المسحاة» على كل عدلة بقشتين ونصف. ويعمل في السماسر أيضاً مجموعة من «السكائبين» وهم مجموعة من العمال الذين يقومون بحمل الماء من خارج السمسرة إلى داخلها وكانوا يحصلون على أجر محدد تبعاً للمسافة التي يقطعها أحدهم وكان يعمل أحياناً باليوم أو الأسبوع أو الشهر⁽⁵⁾. وتُعتبر شخصية «المحتسب» من أهم الشخصيات التي لها صلة بالسماسر وبالسواق بصفة عامة، ويبدو أنه كان يتعهد الناس في أسواقهم ويتفقد مكاييلهم وموازينهم، وما يتبايعون به فيما بينهم، ويحملهم على اتباع الحق ولا يظلم

(1) لا زالت شخصية الكاتب من الشخصيات الهامة في إدارة الوكالات التجارية حتى الآن.

(2) السياغي، المرجع السابق، ص 139.

(3) المرجع نفسه، ص 139.

(4) المرجع نفسه، ص ص 142 - 143.

(5) المرجع نفسه، ص 143.

الباعة أو المبتاعين وكان على الوالي الاستعانة بخيار المحتسبين⁽¹⁾.

تصميم بناء السماسر:

بنيت السماسر بتصميم يسمح بوجود فناء مركزي تدور حوله بقية أجزاء المبنى، وقد تكرر هذا التصميم في معظم المدن اليمنية التي بنيت بها سماسر مثل صنعاء، والحديدة، وعدن، زمان، تعز⁽²⁾، وكان الطابق الأرضي يخصص مرابط للحيوانات (إسطبل) وعادة ما تبني كتل ثلاثية أو ثنائية الأضلاع تربط فيها الحيوانات، وهي قريبة من مجموعة الحجرات الصغيرة في الطابق الأول والتي كانت مخازن في معظم الأحيان. ووجدنا في معظم السماسر «طابق مسروق» يعلو الطابق الأول ويظهر من داخل السمسرة ولا يظهر من الخارج، ويوصل إليه بواسطة درج داخلي. وكانت الحجرات العلوية من الطابق الثاني والثالث تخصص لسكنى التجار، وهذه الحجرات كانت عبارة عن مساحات صغيرة مربعة مغطاة بقباب ضحلة، تُضاء بواسطة فتحات صغيرة في السقف حيث كانت تنفذ أشعة الشمس للدخل المظلم، أو عن طريق نوافذ مفتوحة، على الخارج أو على الفناء. ويلاحظ أن مبنى السمسرة من الداخل كان عبارة عن ثلاثة مستويات تطل على الصحن الداخلي بواسطة بلكونات (شرفات) مسقوفة على هيئة بائكة. ويتصل بتصميم السمسرة وجود بعض الأجزاء المعمارية المخصصة للخدمات مثل أدوات المياه والمغاسل التي كانت توجد

- (1) عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، اليمن في ظل الإسلام، القاهرة سنة 1982، ص 255.
 (2) لا تزال أجزاء من سماسر مدينة تعز قائمة حتى الآن، ولكنها في حالة سيئة من التهدم، وقد أشارت المصادر التاريخية إلى قيام علي بك أمير تعز في عهد مراد ببناء سمسرة شرقي مدينة تعز على يسار الداخل من الباب الكبير، وجعل فيها أربعة وستين مسكناً على طبقتين، الطبقة السفلى مخازن والطبقة العليا مناظر ورواشين، وعين أحد القضاة وأحد الكتاب، وعين لكل منهما راتباً معيناً يصرف كل شهر وذلك من إيرادات هذه السمسرة أيضاً، أنظر الموسوعي، الإحسان في دخول اليمن تحت عدالة آل عثمان، ص 20، 25؛ والسيد مصطفى سالم، الفتح العثماني لليمن، ص 477. وفي مدينة ذمار لا زالت بقايا عدد من السماسر قائمة مثل سمسرة زيد المعطب وسمسرة حجيرة، وسمسرة قائد، وسمسرة بطين، وسمسرة بيت قشطة، وسمسرة عسل والملهوف وكلها في حالة سيئة اليوم.

في أماكن بعيدة نسبياً عن أماكن سكن الناس (جهة الشرق) كما كانت بعكس اتجاه الرياح، وفي الجزء الغربي من السمسة توجد المطابخ التي كانت تقدم وجبات ساخنة في «أحواض» حجرية صغيرة. كما كان يوجد بكل سمسة حوض يُملأ بالماء، ويجدد باستمرار لشرب الدواب. وفي أغلب السماسر توجد ظلالٌ يستريح تحتها الحمالون في الفناء، كما زود الصحن بعدد من المقاعد الحجرية؛ وبخاصةً بالقرب من المدخل وخاصة في السماسر التي تقوم بوظيفة الجمارك. وهكذا نلاحظ أن السمسة كان مبنى يشتمل على أجزاء كثيرة إلا أنها كلها وفقاً لتصميم معماري يتيح لها تأدية وظائف مختلفة في وقت واحد في سهولة ويسر.

تشكيل الحوائط الخارجية للسماسر:

المدخل: تعتبر مداخل السماسر بصفة عامة من المداخل البسيطة بالقياس لحجم مباني السماسر. تتألف المداخل من عقود تدور حول فتحة المدخل. ووجد في بعض الأحيان أكثر من مدخل للسمسة الواحدة، وذلك تبعاً لمساحة هذه المباني. ويلاحظ أننا لم نعثر على مدخل بارز لأي سمسة سواء أكان ذلك في صنعاء أو غيرها من المدن اليمنية الأخرى، وذلك تبعاً لمساحة هذه المباني. ويلاحظ أن معظم هذه المداخل كانت تؤدي إلى الفناء مباشرة، وكان المدخل في العادة من الحجر. ومما هو جدير بالذكر أن الكثير من مداخل السماسر حولت إلى محلات تجارية، أو كانت تقسم لقسمين قسم يترك مدخلاً والآخر يحول إلى دكان. أما الباب نفسه فهو من الخشب، وكانت تتوسطه خوخة⁽¹⁾ للاستعمال اليومي دون حاجة إلى فتح

(1) خوخة وتجمع على خوخ، وهي المخترق بين شيئين وسواء بين دارين أو بين طريقتين، كما تطلق على كوة إدخال الضوء إلى البيت وتدل في العمارة المملوكية على باب صغير من الباب الكبير للمبنى للاستعمال اليومي دون حاجة إلى فتح الباب الكبير. ويقال خوخة حجر، إذا كانت في الحائط وقد تكون الخوخة في درقة باب ولا تتسع إلا لمرور فرد واحد؛ أنظر محمد محمد أمين، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، القاهرة سنة 1990،

الباب الكبير .

الفتحات والنوافذ: تعددت أشكال الفتحات والنوافذ في الجدران الخارجية للسمسرة، فعلى سبيل المثال ظهر منها ما يشبه فتحات السهام (المزاغل) وخاصة في الطابق الأول من السمسرة، كما ظهرت أيضاً أنواع أخرى من المزاغل عبارة عن فتحات مستطيلة أو مربعة وكانت هذه الفتحات في الطابق الأول. وبالنسبة للنوافذ التي وجدت في الطوابق العليا فقد كانت ذات أشكال مختلفة من النوافذ المستطيلة التي تعلوها قمریات (فتحات دائرية) كما ظهرت أيضاً نوافذ مستطيلة، وبعضها كان يبرز عن سمت الجدار ويكون شكل أشبه بالمشربيات في العمارة الإسلامية في مصر. كما ظهر في بعض السماسر نوع من الفتحات الثلاثية اثنان منها في مستوى واحد، وتعلوها واحدة في مستوى أعلى. ويتكرر هذا الشكل على مسافات متباعدة في البناء، لتشكل هرماء. ولقد تنوعت أيضاً أشكال النوافذ التي تطل إلى الداخل، ولكن معظمها كانت نوافذ مستطيلة تعلوها نوافذ أصغر.

المادة الخام المستعملة في البناء:

استعمل الحجر بكثرة واضحة في عمليات البناء وخاصة فيما يتعلق بالطابق الأول من المباني، ومن المعروف أن الأحجار كانت من المواد التي توافرت بكثرة في اليمن نظراً لتوافر الجبال البركانية. على أن بعض السماسر قد استخدمت في بنائها أحجار رملية، ويلاحظ أن الطوابق العليا، كان يُستعمل في بنائها الطابوق، كما كان يستعمل الطوب الأجر في الزخارف التي تعلو هذه السماسر.

العلاقة بين الوظيفة وعمارة السمسرة:

لفظ سمسرة كان يطلق على كل المنشآت التجارية في اليمن، على أن تحليل وظيفة كل منشأة على حدة أوضح لنا أن لفظ سمسرة كان مفهوماً عاماً لعديد من المنشآت التجارية ذات الوظائف المتنوعة. فعلى سبيل المثال كان يستعمل في الدلالة على الخان أو الفندق؛ وقد أشار المؤرخ ابن رسته إلى العديد من الخانات التي كانت تخدم المسافرين على الطرق. كما عرفت اليمن نمطاً آخر من أبنية الخدمات التجارية يعرف باسم المقاهي، ويتركز هذا النوع من المنشآت في مناطق تهامة وكانت تزود بسرائر لنوم المسافرين. كما

وجدت أيضاً منشآت تعرف باسم «الديمة» وهي غالباً مبنى مجاور لضريح وليّ أو شيخ وغالباً كان هذا المبنى عبارة عن شكل معماري مبني بالحجر وكان سقفه عبارة عن قبة بسيطة. كما وجدت سماسر لضبط وتنظيم البضائع، أي أن المنشأة المعمارية كلها كانت عبارة عن مبنى مخصص لوزن البضائع مثل سمسرة الزبيب وسمسرة القشر أو البن، كما وجد أيضاً نوع من السماسر عبارة عن مخازن للبضائع مثل مخازن الخشب والجمال ومثال ذلك سمسرة المتوكل. كما وُجد نوع من السماسر عبارة عن فندق لإقامة التجار الغرباء مثل سمسرة المزين. وتشير المصادر إلى أن عدداً كبيراً من اليونانيين والإيطاليين اعتادوا أن يعيشوا فيها. وأمر طبيعي أن يختلف التصميم المعماري الداخلي للمنشأة التجارية تبعاً لوظيفتها. فعلى سبيل المثال كانت المباني المعروفة باسم الخان صغيرة الحجم نسبياً مزودة بالماء لسقاية الإنسان وسقاية الدواب المصاحبة له، بالإضافة إلى عدد من الغرف لنوم هؤلاء النزلاء، كما تشابه مبنى الخان مع نوع من المباني يعرف باسم «مطرح» وهو عبارة عن منزل بسيط مخصص لإقامة النزلاء من المسافرين من التجار وغيرهم. أما السمسرة التي تخصص لتخزين البضائع فحسب فعبارة عن فناء واسع مكشوف مزود بمجموعة من المخازن الفرعية. أما الفنادق فكانت عبارة عن صفوف من غرف مخصصة للسكن في مستوى مرتفع على فناء أوسط. أما السماسر التي كانت مخصصة لوظيفة الجمركة أو لوزن البضائع فكانت عبارة عن فناء كبير مربع يفتح إلى السماء ومحاط ببائكة من دور واحد، وكانت مزودة بمنصات (مصاطب) platforms مبنية بالحجر، وكانت مجاورة للموازين، وعليها يضع الحمالون أحمالهم من البضائع. وأما السماسر التي كانت تستخدم كمخازن للبضائع فكانت عبارة عن ساحات مقسمة إلى غرف تستخدم لحزن وحفظ البضائع.

وهكذا كان لفظ سمسرة يعني أشكالاً متنوعة من العمائر ذات الوظائف المختلفة ولكنها كلها كانت تتعلق بالتجارة والتجار، على أن أبرز أبنية السماسر وأكبرها هي تلك التي تجمع في داخلها البضائع والتجار من بائعين ومشترين بالإضافة إلى الدواب التي يصحبونها.

مشكلة التأريخ:

تُعد مشكلة تأريخ المنشآت التجارية اليمينية في العصر الإسلامي من المشاكل الصعبة التي تواجه من يقوم بالبحث في هذا الموضوع، وربما تكمن المشكلة في عدم وجود لوحات تأسيسية تشير إلى تاريخ البناء أو صاحب البناء، كما تكمن المشكلة في أن هذه المنشآت التجارية كانت تستعمل في كل العصور وبالتالي كانت تتعرض للإضافة والترميم المستمر ومن هنا كان البناء الأصلي يختفي باستمرار ويصبح جزءاً من بناء أكبر يرجع إلى عصور مختلفة، على أن هناك إشارات تاريخية إلى بناء بعض السماسر مثل سمسرة معمر التي قيل إنها بنيت بواسطة الملكة أروى، وسمسرة المقاهوي التي قيل إنها من بناء الإمام يحيى، وسمسرة العنب في حارة الجامع وتسمى بسمسرة يحيى بن قاسم الفوداني، وكانت هبةً ووقفاً خاصاً لأحمد بن الإمام المنصور الذي مات سنة 1006هـ/ 1597م. وأما سمسرة محمد بن أحسن والتي آل ملكها إلى أمير من بيت القاسم هو السيد محمد بن حسين 1054هـ/ 1644م وبالنسبة لسمسرة المحجة فقد استخدمت منذ أكثر من ثلاثمائة سنة (أي في فترة الدولة القاسمية). وأما سمسرة الميزان فهي وقف خاص لمسجد صلاح الدين محمد بن علي المتوفى عام 793هـ/ 1391م وقيل إن المدخل يرجع إلى نحو ثلاثمائة عام والأرضية تعود إلى عصر حميد الدين (الدولة القاسمية). أما سمسرة الزين فترجع إلى العصر العثماني.

ومما سبق يتضح أن ظاهرة بناء السماسر ترتبط بالنشاط التجاري لليمن وهو نشاط مستمر منذ العصور السابقة على الإسلام إلى العصور الإسلامية بمراحلها المختلفة ومن هنا بقيت مباني السماسر في حالة استعمال مستمر وكذلك حوت إضافات وترميمات مستمرة.

